مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب المجلد 9 العدد 1ب، 2012، ص ص 319- 334

الزمن في المقامة الأصفهانية

محمد علي ابنيان*، سهيل محمد خصاونة* وعلي صالح بن تميم**

ملخص

يحاول بديع الزمان الهمذاني في هذه المقامة، التوفيق بين زمني الدين والدنيا، وذلك حين جرب تحقيق ذلك بتأدية صلاة الفجر في مسجد أصفهان، دون أن تفوته القافلة التجارية التي ينتظرها لمرافقتها إلى بلاد الري، ولكنه فشل – وكان بإمكانه ألا يفشل- لو أن القائمين على المساجد- أئمة ووعاظا- مدركون خصوصية مهمتهم، وما تمليه عليهم من وجوب مراعاة ظروف من خلفهم من رواد المساجد، لهذا جاءت المقامة مكونة من قسمين رئيسين، خصص القسم الأول، وهو المقامة- لانتقاد إمام المسجد، الذي أدى الصلاة بأناة مفرطة، في حين خصص القسم الثاني وهو (المنام) لانتقاد الوعاظ الذين يظهرون فجأة بعد الصلاة، فيسفحون دم الوقت على مذابح الكذب والخداع والاحتيال في أغلب الحالات.

مقدمة:

تختص كل مقامة من مقامات بديع الزمان الهمذاني بموضوع من المواضيع المهمة، وتستأثر المقامة الأصفهانية بالحديث عن الزمن في بعديه الديني والدنيوي، وعلاقة الإنسان بهما، وهو موضوع حساس قديما وحديثا، ولن ينتهي الحديث فيه.

ينطلق هذا البحث من تساؤل جوهري فرضته هذه المقامة هو: هل الإنسان ضحية الزمن، أم الزمن ضحية الإنسان، أم إن كليهما ضحية الآخر؟ ولربما يكون الجواب السريع المتعاطف هو أن الإنسان هو الضحية، ولكن الجواب المتأني هو أن كلاً منهما ضحية الآخر، وبصورة جدلية لا تكاد تنتهي، ففي اللحظة التي يقطعنا فيها الزمن، نكون نحن نقطعه، ولكن قطعنا إياه يأخذ صوراً وأشكالاً مختلفة متعددة، مع ملاحظة أن حسن استثمار الوقت غير سوء استثماره، وكلتا الحالتين بالتأكيد قطع للوقت، والزمن يكشف فاعلية النص وفضاءه الرحب، وهو من الفضاءات الرحبة لهذا النص وأغواره العميقة التي قد تركز عليه قراءة ما، وقد لا تركز عليه قراءة أخرى [1].

يتركز الاهتمام على أهمية الناقد في إنتاج النص الإبداعي الجديد، عن النص الأصيل، وذلك من خلال إعادة تحديد المفاهيم الكامنة في هذا النص، وتفعيلها عبر سلسلة من آليات التأويل

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2012.

* قسم العلوم الإنسانية / شعبة اللغة العربية، جامعة العلوم والتكنولوجيا الاردنية، اربد، الأردن.

* كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الإمارات، العين، الإمارات العربية المتحدة.

الفاعلة، وبالتالي الوصول إلى مجموعات الدلالات الفنية المستترة خلف ما هو ظاهر في هذا النص، والتي قد لا تتحقق بكشف القارئ لها، بقدر ما تتحقق بإنتاجه لها، من هنا، فإن النص المنتج منفلت من الذات المنتجة التي لا تتحقق أبداً من شكله النهائي، لأن إدراكه يتطلب متلقيا آخر[2].

لعل ما يريد بديع الزمان الهمذاني طرحه في مقامته الأصفهانية هذه، هو ضرورة حسن استثمار الوقت الديني، وإجادة إدارته، والتنبه لعظيم قيمته، واستشعار دقائقه، خصوصا لدى القائمين عليه، المتحكمين بشؤونه، من أمثال بعض أئمة المساجد ووعاظها، الذين بأيديهم زمام الوقت الديني، فيتحكمون برقاب الآخرين، دون مراعاة لارتباطاتهم الدنيوية المختلفة، فيسيئون إلى الدين والدنيا من حيث يعلمون، أو لا يعلمون.

إن الفكرة الأساسية في هذه المقامة تنبعث من ضرورة التوفيق بين الدين والدنيا، بين العبادة والتجارة، بين المسجد والسوق، بين صلاة الفجر والقافلة المتجهة إلى بلاد الري، بين عيسى بن هشام وبين إمام مسجد أصفهان من جهة، وبينه وبين أبي الفتح الأسكندري المتنكر بثياب الواعظ الدعي الأفاك من جهة أخرى، وهذا جميعه لا يكون إلا بحسن إدارة الوقت، وإجادة استثماره.

وبديع الزمان الهمذاني، إذ يعالج هذه المسألة من مكانها الخاص بها، وينقل أحداثها من مسجد أصفهان، فانه على وعي بما للفعل من ميزة عندما ينقل من المكان المخصص له.

الإنسان ومفهوم الزمن العام:

إن كان السؤال عن الزمن واحداً، فإن الإجابات عنه مختلفة متغايرة، وهو أمر عائد إلى اختلاف أمزجة الناس المتسائلين وتجاربهم.

فمثلاً لم يكن اهتمام الفلاسفة اليونانيين منصباً على زمن الحياة الدنيا الذي يعتريه التبدل والتغير، بل انصرفوا إلى الوجود اللازماني الثابت المستقر الخالد، أما في النصوص الأدبية وغيرها، فتوجد سلسلة زمنية قوية، تتضمن رؤية النص، وهو ما يتوجب على القارئ إدراكها لاستيعابها[3].

لقد بقي مفهوم الزمن في الفلسفة اليونانية ينطبق على العالم الحسي وحده، وبقيت مسألة الزمن في ذيل قائمة الاهتمامات، لأن الزمن الغيبي في نظرهم أرقى من الزمن الحسي[4]، وهكذا استمرت هذه النظرة في القرون الوسطى، حتى جاء هيجل، وقال: إن وجود الكائن لا ينفصل عن تحقيق ذاته[5].

أما مفهوم الزمن في الإسلام، فقائم على نظرة متوازنة تتكئ على مبدأ الاعتدال والوسطية الذي يحكم العقيدة الإسلامية، بحيث لا يطغى زمن الدنيا على زمن الآخرة، وعلى المسلم أن يعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً، وأن يعمل لآخرته كأنه يموت غدا.

يقدم بديع الزمان الهمذاني في مقامته الأصفهانية هذه، معالجة حية نابضة، لمشكلة قديمة حديثة، تتمثل في تعامل بعض أئمة المساجد ووعاظها مع الوقت دون إيلاء اهتمام لارتباطات المصلين ومشاغلهم التي تفرض عليهم أن يؤدوا فروض دينهم ودنياهم دون ان يطغى جانب على آخر، فكما أن للدين فروضه، فان للدنيا فروضها، وعلى أهل الدين أن لا يستغلوا قداسة الزمان والمكان في الضغط على الناس، وحصرهم وتعطيل مصالحهم.

إن مسألة الوقت في المقامة الأصفهانية، ليست معالجة نظرية تقوم على الوعظ المنبري، بل هي معالجة فريدة، تقوم على التفاعل والمعايشة الطبيعية الحارة، من هنا يمثل الزمن عنصراً مهماً فيها من حيث أنه الخط الذي تسير عليه الأحداث[6]، فالمقامة الأصفهانية مغموسة بالوقت غمساً، تفوح منها رائحة الزمن فوحاً، ولج فيها بطل بديع الزمان عيسى بن هشام الزمان والمكان، وراح يتقلب بأحاسيسه ومشاعره الحارة من مسجد أصفهان، نافخاً الروح في مفرداته وجمله عبر حوار داخلي لاهب؛ لتنتفض المقامة أمامنا صوراً حية ناطقة أو تكاد.

وقد جاء بناء المقامة اللغوي ترجمة حية لارتباط مفهوم الزمن باللغة، فاللغة استعملت في حين من الزمن ألفاظاً مثل، الدهر، والقرن، والحين، والحول، واليوم، والأسبوع، والساعة، والدقيقة. وهو فهم – كما هو واضح – تقريبي للزمن يعكس البعد العلمي والحضاري لذلك الأوان قياساً بمفهومه اليوم، الذي يهتم بأصغر وحداته، لأن لها قيمة بالغة، تؤثر على حياة الإنسان وأعماله[7]. حقاً، لقد صار الزمن اليوم كمياً يقاس بالمتر، وهي قابلة للوصف والحصر، والتحديد[8]: فالثواني، صار يقابلها انطباع يقاس بأوصاف مثل البساطة والتعقيد، والثواني صارت جمرات نارية تسري في الدم وتفتك بكرياته، ويبقى الزمن دائما بالنسبة للإنسان مشحوناً بالمغزى، مرهوناً بالخبرة الشخصية، وليس كما يبدو لمراقب أو مؤرخ ينظر إليه من بعيد خارج منطقة التماس المباشر[9]. ويبقى طغيان الزمن، يمثل قمة الإحساس بالعجز عند الإنسان الذي يشتبك معه في أسوأ صراع يتطلب استمرار المقاومة والتصدي[10].

إن الاهتمام بالزمن علامة حضارية، واحترام للذات، ومؤشر واضح على وعي الإنسان لحياته، وإدراكه تفاصيلها، والإنسان ذاته قادر على اعطاء الزمن قيمه؛ لأنه في إطاره الفيزيائي العام، يحوي كثيراً من العوامل التي تؤدي الى اختلاف الإحساس به على مستوى المجتمعات والأفراد، تبعاً لعوامل كثيرة، فقراءة النص بالنسبة للمتلقي، هي عملية زمنية تحدث في الذهن، والنص هو

ما يمثل هذه الحركة الحادثة داخل العقل[11]، وبعض الناس اليوم، يتآكلون مع كل ضربة عقرب ساعة[12]، في حين لا يشعر آخرون بمثل هذا الشعور، وذلك لأن إدراك الوقت، مرتبط باستطاعة الفرد الذاتية على تقدير قيمة الزمن من خلال الإحساس الذاتي، أو الشعور المرافق للعمليات النفسية المرتبطة دائما بالوقت، دون الاستعانة بأدوات قياس الزمن[13].

هاجس الزمن في المقامة:

يعيش بديع الزمان الهمذاني موضوعه الذي يريد طرحه حالة نفسية حية متلبسا الزمان والمكان، فينعكس ذلك على ألفاظه، ومعانيه، مما يجعلنا نستشعر الجو الحقيقي للأحداث وكأننا نرى ونسمع، ولا عجب في ذلك، فالإنسان كما يقول "ميرهوف": حيوان موسوس بالزمن[14].

لقد أيقظ بديع الزمان الهمذاني عيسى بن هشام بطل مقامته التي تتحدث عن الزمن وقت الفجر، وهذا مؤشر صارخ على احترام الوقت من جهتين: فالنهوض من النوم مبكرا أمر محمود جدا من جهة، فكيف إذاً كان مقرونا بعبادة وسفر في تجارة من جهة أخرى، ثم أن اختياره صلاة الفجر، وهي ثنائية الركعات، وليست رباعية، مؤشر آخر على أن بديع الزمان لا يريد التطويل في الحديث عن" التطويل" الذي ينهى عنه، وهذا تطبيق عملي فعله، وقد جاء ترجمة واقعية لما يريد بديع الزمان معالجته، كما انعكس هذا الأمر جليا واضحا على عبارات بطل بديع الزمان وجمله التي صاغ بها مقامته، فقد اكتفى في وصفه إطالة الإمام في الركعة الثانية بقوله: وقام إلى الركعة الثانية، فقرأ الفاتحة والقارعة قراءة استوفى بها عمر الساعة، واستنزف أرواح الجماعة[15]، وهو تعبير وجيز في ظاهره، لكنه طويل طويل في معناه وهذا من بلاغة المختص، كما يمكننا فهم ما أصاب عيسى بن هشام من إحباط ويأس وبعد ركعتين اثنتين فقط وفي صلاة الفجر- والنهار ما يزال في أوله وهو في بداية نشاطه- بأنها إشارة تدعونا إلى ملاحظة مقدار ما يصيب المصلين الذين يصلون وراء ذلك الإمام في الصلوات الرباعية الأخرى وقد تقدم بهم النهار، ونالهم من التعب ما نالهم.

ونستطيع ملاحظة ما فعله عيسى بن هشام حين اختار أن يصلي في الصف الأول عمدا وقصدا- وهو المستعجل- وكان بإمكانه أن يصلي في الصفوف الأخيرة، فيترك الصلاة وينسحب في اللحظة المناسبة له من دون حرج، لكنه لم يشأ ذلك، لأنه يريد أن يعالج مشكلة الإطالة في الصلاة كظاهرة عامة فاشية، وليست كظاهرة فردية عابرة، فهو يريد أن يحل مشكلة من هو في الصف الأول، ومن هو في الصف الأخير، ومن هو مستعجل، ومن هو متأن دون تمييز.

يظهر أن بديع الزمان أراد بجرأة المؤمنين المخلصين، نقد الإطالة في الوقت التي يرتكبها أئمة المساجد ووعاظها في زمنه،فدخل إلى المسجد مباشرة، مدركاً قيمة المكان من خلال ارتباطه

بالفعل البشري، وما يحملانه من انفعالات الكائن البشري ومشاعره، واعيا في الوقت ذاته عقيدته الدينية الإسلامية التي تعترف بأهمية الوقت وقيمته وتأثيره على النفس الإنسانية؛ فالاسلام شرع القصر والجمع في الصلاة في حالات خاصة؛ اعترافاً منه بتأثير الزمن على النفس، وهو أمر يدل على حكمة الإسلام البالغة في التعامل مع الوقت الذي لا يقاس دائماً بالدقائق والساعات، وانما يرتبط بالروح، حتى تصير الدقيقة احياناً دهراً كاملاً، ويخف احياناً أخرى، فتصبح الساعة دقيقة أو أقل، ذلك لأن الاقتراب من الزمن يختلف باختلاف الأمزجة والتجارب، ولهـذا، نرى تعدد الإجابات علـى سـؤال الزمن[16].

ومن هنا يمكننا الحديث عن الزمن في المقامة الأصفهانية عبر زاويتين اثنتين كانتا في حالــة تعارض، فأشعلتا نار الصراع في نفس عيسى بن هشام – الذي يؤدي دور البطولة في الجزء الأول من هذه وهما:

الأولى: زاوية دينية، نطل من خلالها على عيسى بن هشام وقد سمع المنادي من مسجد أصفهان لصلاة الفجر، وزمن الصلاة يصنف زمنا متعاقباً؛ أي يعقب بعضه بعضا، ويكرر نفسه برتابة، بمعنى أنه يسير بشكل دائري لا طولي[17]، أي لا بد من تأديته من قبل اكتمال الدائرة، وإلا فاتنا.

الثانية: زاوية دنيوية، وفيها نرى عيسى بن هشام نفسه ينتظر على أحر من الجمر القافلة التجارية المتجهة إلى بلاد الري، فتظهر في لحظة إقامة الصلاة، وزمن القافلة يصنف زمناً منقطعاً بمعنى أنه مرتبط بالقافلة، فإذا ما فاتت القافلة، لم يعد للزمن أهمية خاصة[18].

أشكال الصراع في المقامة الأصفهانية:

يتفاعل بديع الزمان الهمذاني بحرارة مع موضوعه الذي يعالجه، فينخرط فيه تماماً، ويظهر ذلك بوضوح على عناصر بنائه الفني المختلفة، دون أن يكون ذلك مقصوراً على المضمون الداخلي، من هنا يتجلى إبداع المتلقي في إنتاج نص إبداعي يولد من رحم النص الأم، ومن هنا يأتي دور النقد، من حيث إنه إبداع واحتراف يتحالف مع العقيدة الثقافية، تتسامى فيه القدرة على انتاج نصوص إبداعية جديدة[19].

يظهر أن الروح الصراعية التي غشيت المقامة الأصفهانية بادية على بنائها العام وشكلها الخارجي وهو ما يعكس واقعا اجتماعيا معيشاً[20]، فهي مؤلفة فعلياً من قسمين اثنين، يمكن أن نسمي الأول" مقامة"، وهو ما جاء على لسان الراوي عيسى بن هشام، بينما يمكن تسمية الجزء الثاني "منامة"، وهو ما جاء على لسان "الواعظ" أبي الفتح الاسكندري، مع ملاحظة أن الانقسام

في الغالب يحوي بذوراً صراعية، وهو ما حصل- على ما يبدو – بين شخصيتي المقامة على الأدوار، فالراوي التقليدي عيسى بن هشام صار بطلاً في الجزء الأول، وتحول البطل التقليدي للمقامات الهمذانية أبو الفتح الاسكندري الى بطل المنامة فتأخر دوره إلى القسم الثاني، وهو ما سنعمل على بيانه تالياً:

أولاً: صراع الشكل:

تتألف المقامة الأصفهانية في إطارها العام من قسمين رئيسين:

الأول: ويمثل مجريات أحداث ركعتي صلاة الفجر التي أداها عيسى بن هشام جماعة مقتدياً بإمام مسجد أصفهان.

الثاني: ويشمل تفاصيل منام الواعظ أبي الفتح الإسكندري الذي ظهر بعد انتهاء الإمام من الصلاة.

يصلح كل قسم من قسمي المقامة أن يكون كياناً منفرداً قائماً بذاته، فالقارئ لا يكاد يشعر بآثار "عملية التوصيل واللحام" الموجودة بين القسمين، وذلك لوجود توافق في الخلايا والأنسجة بين القسمين ناتجة عن براعة المؤلف الذي يشعر بضرورة حل المشكلة المشتركة في جلسة واحدة.

إن هذا الاتحاد "الإجباري" الذي فرضه المؤلف على مقامته، يظل يشير إلى بذور صراع غالباً في أرحام الاتحادات التي تعيش في الغالب حالة شد توقا إلى الاستقلال والحرية، رغم ما يبدو عليها من ظاهر مطمئن.

ثانياً: صراع الشخصيات على الأدوار:

وقع في هذه المقامة صراع على البطولة، حيث أدى دور البطولة في الجزء الأول الراوي التقليدي للمقامات عيسى بن هشام، في حين قام أبو الفتح الاسكندري – البطل التقليدي للمقامات – بتأدية دور البطولة في الجزء الثاني، وهو أمر جاء منسجماً مع جو المقامة الصراعي سواء أكان هذا الأمر مقصوداً أو عفوياً.

ثالثاً: الصراع بين شخصيات المقامة على الزمن:

1- بين عيسى بن هشام والمؤذن:

بدأ الصراع في نفس عيسى بن هشام –الذي ينتظر القافلة التجارية المتوجهة إلى بلاد الري– مبكرا، ومن اللحظة التي سمع فيها صوت المؤذن ينطلق من مسجد أصفهان، يدعو إلى

صلاة الفجر، وقبل أن يتفاعل الصراع كثيرا في داخله، حسم أمره، فقرر كسب الصلاة –رمز الدين-، ريثما تأتي القافلة –رمز الدنيا-، فيجمع بينهما، دون تفريط بواحد منهما على حساب الآخر، يقول: كنت بأصفهان، اعتزم المسير إلى الري، فحللتها حلول الفي، أتوقع القافلة كل لمحة، وأترقب الراحلة كل صبحة، فلما حم ما توقعته، نودي للصلاة نداء سمعته، وتعين فرض الإجابة، فانسللت من بين الصحابة، أغتنم الجماعة أدركها، وأخشى فوت القافلة أتركها، لكني استعنت ببركات الصلاة على وعثاء الفلاة، فصرت إلى أول الصفوف، ومثلت للوقوف، وتقدم الإمام للمحراب..."[21].

يتضح من النص، أن انتظار عيسى بن هشام القافلة، هو اهتمامه الأول، فهو يتوقعها كل لمحة، ويترقبها كل صبحة، وأن الصلاة هي التي طرأت، فهو قلق قبل أن تزيده صلاة الجماعة قلقاً على قلق، يقول: فلما حم ما توقعته، نودي للصلاة نداء سمعته، وتعين فرض الإجابة، فانسللت من بين الصحابة، أغتنم الجماعة أدركها، وأخشى فوت القافلة أتركها[22]، "فابن هشام يتصرف بحس المؤمن متأملا أن تعينه الصلاة وبركاتها على التوفيق بين زمن العبادة والتجارة، يقول: " لكني استعنت ببركات الصلاة على وعثاء الفلاة، فصرت إلى أول الصفوف، ومثلت للوقوف، وتقدم الإمام للمحراب..."[23]. وهنا، نلاحظ وعي بديع الزمان تسلسل العناصر المشكلة للنص من حيث العلاقة الخاصة بين الأجزاء، أو العناصر بعضها ببعض، بقصد الكشف عن وحدة العمل الكلية، على نحو يبرز علاقة بعضها ببعض، سواء أكانت تلك العلاقة ظاهرة أم خفية[24].

2- بين عيسى بن هشام والإمام "قراءة القرآن والزمن":

أ – قراءة الإمام القرآن في الركعة الأولى:

تفاجأ عيسى بن هشام عند دخوله المسجد ووقوفه وراء الإمام بالأناة المفرطة عنده في القراءة والحركة، وهو ما لا يتناسب معه، وهو المستعجل الذي يريد أن يؤدي واجبه الديني ويلتحق بالقافلة ن دون أن يخسر أحدهما، يقول: "وتقدم الإمام إلى المحراب، فقرأ الفاتحة، فاتحة الكتاب بقراءة حمزة مدة وهمزة، وبي الغم المقيم المقعد في فوت القافلة، والبعد عن الراحلة، واتبع الفاتحة الواقعة، وأنا أتصلى نار الصبر وأتصلب، وأتقلى على جمر الغيظ وأقلب، وليس لي إلا السكوت والصبر، أو الكلام والقبر، لما عرفت من خشونة القوم في ذلك المقام، أن لو قطعت الصلاة دون السلام، فوقفت بقدم الضرورة، على تلك الصورة، إلى انتهاء السورة، وقد قنطت من القافلة، وأيست من الرحل والراحلة[25].

نما الصراع في نفس عيسى بن هشام وتفاقم من الركعة الأولى، وأوصله إلى القنوط واليأس من اللحاق بالقافلة، والسبب هو قراءة الإمام الجائرة للقرآن، حيث يمد ما ليس يمد، استهلاكا

للوقت وهدرا، فهو يقرأ الفاتحة بقراءة حمزة، مدة وهمزة- مع أن الفاتحة ليس فيها همز، ولا مد يظهر رواية حمزة كما يقول المحقق في الهامش – [26]، كما أن الإمام عمد بعد قراءته الفاتحة إلى قراءة سورة الواقعة، وهي من السور الطويلة، التي تدل على أهوال يوم القيامة، والحق أن ابن هشام كان سيسمعه يقرأ الواقعة، ولو كان يقرأ سورة الإخلاص، لأنه- في واقعة حقيقية- فهو مشغول بالتوفيق بين زمنين مختلفين يعاندانه حاليا أشد العناد، والزمن كما هو معروف مرتبط إدراكه بالحالة النفسية للإنسان[27]، لهذا ذهب الزمخشري في تفسير قوله تعالى: " تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين الف سنة "[28]، إلى أن استطالة اليوم سببها المعاناة والشدة على الكفار، أما على المؤمنين، فان اليوم يكون كما بين الظهر والعصر[29].

يقول برغسون: إن الزمن يكون له طعم،أو يشعر به، في حالات ثلاث: تجرع نشوة لحظة نجاح، آو معاناة لحظة فشل، أو إدراك ذاهل لنموذج فني رائع[30]، وهنا كما هو واضح، تجرع عيسى بن هشام معاناة لحظة فشل مرير، فخرج من الركعة الاولى محطم الأعصاب، يائساً خاسرا، فلم يستطع التوفيق بين الصلاة والسفر مع القافلة، فظل في المسجد: "يتصلى نار الصبر ويتصلب، ويتقلى على جمر الغيظ ويتقلب، وليس له إلا السكوت والصبر، أو الكلام والقبر؛ لما عرف من خشونة القوم في ذلك المقام، أن لو قطعت الصلاة دون السلام، فوقف بقدم الضرورة، على تلك الصورة، إلى انتهاء السورة وقد قنط من القافلة وأيس من الرحل والراحلة"[31].

ب- قراءة الإمام القرآن في الركعة الثانية:

قنط عيسى بن هشام من اللحاق بالقافلة المتجهة إلى الري من الركعة الأولى، إلا أنه بقي لديه ما يقوله مشنعاً على الإمام إطالته في الصلاة، وعدم مراعاته ظروف الناس، فقد وصف تطويله في قراءة القرآن في الركعة الثانية بقوله: "وقام إلى الركعة الثانية، فقرأ الفاتحة والقارعة قراءة استوفى بها عمر الساعة، واستنزف أرواح الجماعة[32]، فقد بلغ به الشعور بثقل الوقت ووطأته جراء ما يفعله الإمام به وبالمصلين أن رأى أن القيامة قد آن أوانها، وحان زمانها؛ لفرط معاناته، ولهذا؛ خيل له أن الإمام قرأ سورة القارعة، بما توحيه من أهوال شدائد، وهذا يناسب الشعور النفسي الذي يمزقه ويفتك بأعصابه.

تقول فيرجينا وولف: "إن عقل الإنسان يعمل بغرابة في جسد الزمن، فالساعة يمكن مطها خمسين أو مئة مرة من طولها الدقائقي، ويمكن التمثيل على الساعة بثانية واحدة لقصرها، والسبب في هذا الشعور – كما يقول – بروست: هي الانفعالات التي تجتاحنا، فهي التي تمدده وتبسطه، وفي ذات الوقت، هي التي تقبضه[33].

- بين عيسى بن هشام والإمام (حركة الإمام والزمن).

أ- حركة الإمام في الركعة الأولى:

يعالج بديع الزمان الهمذاني مسألة الإطالة في الصلاة، وهي مسألة متكاملة، لا بد له أن يتناول عناصرها كاملة، فقد سقط عيسى بن هشام قبل نهاية الركعة الأولى يائساً قانطاً من القدرة على التوفيق بين الصلاة والسفر جراء إطالة إمام المسجد قراءته القرآن، إلا أنه بقي مواصلاً حديثه عن تفاصيل الإطالة التي يجترحها الأئمة، والتي لا تقتصر على الإطالة في زمن قراءتهم الجهرية للقرءان، بل تتعدى إلى حركاتهم البطيئة أثناء الركوع والسجود التي استوفي بها عمر الساعة، واستنزف أرواح الجماعة بلغة المقامة نفسها،وهي لغة استثمرها الكاتب بفنية عالية للوصول إلى ما يريد، وقد تجلى أثر الزمن في هذا المقام أكثر مما قد يفصح عنه السرد ذاته، من حيث تمظهره من خلال التصاقه بعمق الشعور المتولد لدى بعض الشخصيات، وإحساسها بوطأته وثقله عليها[34].

لننظر إلى وصف عيسى بن هشام حركة ظهر الإمام البطيئة وهو في حالة السجود حين قال: "ثم حنى قوسه (أي ظهره) للركوع – بكل ما لانحناء القوس من إيحاءات نفسية هنا لا يراها بوضوح إلا المسافر المستعجل الذي يرى الخط المستقيم هو أقرب الطرق - بنوع من الخشوع وضرب من الخضوع لم أعهده من قبل، ثم رفع رأسه ويده، وقال سمع الله لمن حمده وقام حتى ما شككت انه قد نام ضرب بيمينه وأكب لجبينه، ثم انكب لوجهه، ورفعت رأسي انتهز فرصة، فلم أر بين الصفوف فرجة، فعدت إلى السجود، حتى كبر للقعود وقام إلى الركعة الثانية"[35].

كم تبدو صورة عيسى بن هشام مضحكة مبكية، ونفسه موزعة بين هدفين يمكن تحقيقهما معاً، لو كان إمام المسجد، على وعي بحاجات المصلين، واهتماماتهم، ومشاغلهم، التي من المفروض أن يراعيها الأئمة في كل زمان ومكان، لكن إمام المسجد كان في واد، وعيسى بن هشام في واد آخر، لقد كان الوقت يمر على عيسى بن هشام ثقيلاً لزجاً، ولهذا بدا متن الإمام لعيسى بن هشام عند ركوعه قوساً منحنياً، قد استغرق وقتاً طويلاً لاكتساب مثل هذه الصفة، وقد زاد هذا الوقت ثقلاً على نفسه الخشوع المصطنع، والخضوع المبتذل الذي يبديه الإمام، وكم هو موح معنى التراخي الذي يضيفه حرف العطف "ثم" حتى أشعرنا عيسى بن هشام بانعدام الحركة عند الإمام، في لحظة نهوضه من الركوع، وذلك من خلال تتابع أعضائه بصورة بطيئة مملة، حيث وصفه قائلا: "ثم رفع رأسه ويده، وقال: سمع الله لمن حمده، وقام حتى ما شككت انه قد نام[36]، والنوم كما هو معلوم موت مؤقت، والموت سكون، والسكون عدو الحركة وضدها، يقول ابن سينا: إنا لا نشعر بالزمان إلا إذا شعرنا بحركة، فالمريض والمكتئب يريان الزمان طويلاً، بينما

المغتبط يراه قصيراً، والسبب هو الحركة عند الثاني، وانعدامها عند الأولين، وأهل الكهف من قبل فقدوا الشعور بالزمن لفقدانهم الحركة[37].

ب- حركة الإمام في الركعة الثانية:

يسير بديع الزمان الهمذاني في حديثه عن الزمن وضرورة احترامه ضمن فلسفة محكمة لا ينطبق عليه مضمون: "يقولون ما لا يفعلون"، بل هو يقول ويفعل، ويريد من الآخرين أن يفعلوا ولا يكتفوا بالقول، ففي الركعة الأولى فصل نسبياً في وصف قراءة الإمام القرآن، وكذلك فعل في وصف حركة ركوعه وسجوده، أما في الركعة الثانية، فقد أشار إلى القراءة إشارة سريعة تتناسب مع فلسفة المقامة وفكرتها، واكتفى بالإيماء إلى الحركة، وهذا تطبيق عملي لما يدعو إليه، يؤشر على وعي وإيمان قل نظيره، ففي وصفه جلوس الإمام للتشهد، وقراءة الصلاة الإبراهيمية للتسليم والخروج من الصلاة قال: "فلما فرغ الإمام من ركعتيه، وأقبل على التشهد بلحييه، ومال إلى التحية بأخدعيه، وقلت: سهل الله المخرج وقرب الفرج، قام رجل وقال:..."[38]: فهذا وصف دقيق، يرقب فيه حركة اللحيين عند الإمام بكل ما يتضمنه المعنى من حرارة الصراع الداخلي المخنوق والذي يتوق لقرب الخلاص من هذه الورطة، فهو يدقق في أدق حركات فكي الإمام اللذين يتحركان بقراءة المتطلبات الأخيرة لإنهاء الصلاة، وهنا نحس المفارقة القائمة بين ما يجب على المصلي أن يكون منصرفا إليه من خشوع في الصلاة، وبين حالة عيسى بن هشام، الذي يتابع الإمام بمادية غليظة، تستنكرها روحانية الصلاة وخشوعها، فما أن سمع تسليم الإمام معلنا الخروج من الصلاة، حتى تنفس الصعداء، لكن المفاجأة غير السارة كانت له بالمرصاد، إذ قام واعظ من بين المصلين، وأطبق على أنفاس المصلين من جديد، وبهذا، استطاع بديع الزمان بمهارة فنية ملفتة، أن يحسن التخلص من حالة الإمام، ليدخل بسلاسة وسهولة إلى حالة الواعظ، ولا يلحظ هذا إلا المتلقي المتفاعل اليقظ المتنبه إلى ما يستتر خلف النص، وهي عملية مهمة وضرورية، إذ تؤدي إلى قراءة أكثر إنتاجاً وعمقا للنص[39].

- بين عيسى بن هشام والواعظ:

اشتعلت نار الصراع من جديد في نفس عيسى بن هشام، بعدما كادت تنطفئ بعد أن ظهر هذا الواعظ الأفاك، وكان ظهوره لا بد منه عمليا وفنيا؛لأن بديع الزمان يعالج مسألة هدر الوقت الديني في المساجد، من القائمين عليها المستغلين قداسة المكان والزمان، وهو أمر لا يتعلق بالأئمة فقط،، بل يشترك به بعض الوعاظ، والمتظاهرون بالوعظ، وهم الأشد خطرا، إذ يجترحون معصيتين مزدوجتين، عندما يسرقون وقت المصلين من جهة، ويسرقون جيوبهم بالكذب والافتراء من جهة أخرى، وهذه مشكلة متصلة فصولها، يحكمها المكان الواحد، فلابد من بحثها متصلة في

مكانها، فبعد أن أفلت المصلون من قبضة الإمام، وقعوا في قبضة الواعظ الدعي، الذي بادر المصلين فور تسليم الإمام قائلاً: "من كان منكم يحب الصحابة والجماعة، فليعرني سمعه ساعة، فقال عيسى بن هشام: فلزمت أرضي صيانة لعرضي، فقال الواعظ: حقيق علي أن لا أقول غير الحق، ولا أشهد إلا بالصدق، فقد جئتكم ببشارة من نبيكم، لكني لا أوديها حتى يطهر الله هذا المسجد من كل نذل يجحد نبوءته، قال عيسى بن هشام: فربطني بالقيود وشدني بالحبال السود، ثم قال: رأيته صلى الله عليه وسلم في المنام، كالشمس تحت الغمام، والبدر ليل التمام، يسير والنجوم تتبعه، ويسحب الذيل، والملائكة ترفعه، ثم علمني دعاء أوصاني أن اعلم ذلك أمته، فكتبته على الأوراق بخلوق ومسك وزعفران وسك، فمن استوهبه مني وهبته، ومن رد ثمن القرطاس علي أخذته، قال عيسى بن هشام: فلقد انثالت عليه الدراهم حتى حيرته، وخرج، فتبعته متعجباً من حذقه برزقه، وتمحل رزقه، وهممت بمسألته عن حاله، فأمسكت، وبمكالمته، فسكت، وتأملت فصاحته في وقاحته، وملاحته في استماحته، وربطه الناس بحيلته، وأخذه المال بوسيلته، ونظرت فإذا هو أبو الفتح الإسكندري، فقلت: كيف اهتديت إلى هذه الحيلة، فتبسم، وأنشأ يقول:

النـــــــاس حمر فجوز وابرز عليـــــــهم وبرز

حتـــى إذا نـــــلت منهم ما تشتـــــــهيه ففروز[(40)]

هذا هو مجمل أحداث الجزء الثاني من المقامة الأصفهانية، والتي تشمل تفاصيل "منام" رآه الواعظ "أبو الفتح الإسكندري"، وادعى من خلاله انه شاهد الرسول صلى الله عليه وسلم في المنام، فأوصاه وصية طلب منه تبليغها إلى المسلمين".

فإذا كان إمام المسجد قبل قليل قد تحكم بالمصلين تعسفا، ولوى أعناقهم بقراءته سور القرآن الطويلة بطريقته القاتلة تنطعا بالإضافة إلى حركاته المتماوتة المفتعلة أثناء الركوع والسجود فإن الواعظ الدعي الحاذق الداهية عمد إلى مصادرة وقت المصلين وحشرهم مجبرين للبقاء في المسجد، والاستماع إليه عنوة وإجباراً، وذلك باستخدامه وسائل وأساليب ليس فيها رائحة الدين ولا تمت إلى الأخلاق أو الفضيلة بصلة من مثل:

- الإحراج بالمشاعر الدينية:

وجه الواعظ حديثه للمصلين قائلاً: من كان منكم يحب الصحابة والجماعة فليعرني سمعه ساعة، فجلس بن هشام مضطراً، لأنه لو خرج، فسيكون ممن لا يحبون الصحابة، وبذلك يستحق اللعن، بل ربما الإساءة والضرب، خاصة أن القوم الذين يحيطون به من المصلين خشنو الطباع- كما وصفهم في أول المقامة- ولهذا جلس ليس حباً واختياراً، بل جبراً واضطراراً، وحفظاً لنفسه وحماية لعرضه. كما قال: "فلزمت أرضي، صيانة لعرضي"[(41)].

- الاتهام بالعبارات البذيئة:

عندما أعلن الواعظ للناس أنه يحمل لهم بشارة من الرسول صلى الله عليه وسلم، وحتى يمكن لنفسه جواً مسيطراً، وليحكم حيلته، قال بخبث: "قد جئتكم ببشارة من نبيكم، لكني لا أؤديها حتى يطهر الله هذا المسجد من كل نذل يجحد نبوءته"[42].

إذن، فالنبي نبيكم، ومن لا يريد الاستماع لنبيه فهو جاحد منكر للنبوة، لذلك جلس ابن هشام يستمع مربوطاً بالقيود، ومشدوداً بالحبال السود كما قال.

- استخدام تقنية الحلم:

تستخدم الأحلام وسيلة ناجعة للإفلات من الزمن والهروب من عالم المساءلة والمسؤولية،كما أن تأثيرها الطاغي على الناس لا خلاف عليه خصوصا البسطاء منهم، لأنها من عالم الغيب، والنفس البشرية مولعة بمعرفة المجهول، فهي تستسلم باستمتاع لحديث الغيبيات والغرائب وتميل إلى تصديقه، وقد استغل أبو الفتح الإسكندري حساسية الحلم وتأثيرها على النفوس خصوصا نفوس البسطاء والعامة، وقد تجلى الكاتب في اختيار زمن الليل، فالليل قد يجلب لكل متفكر وحيد التعويض الواضح عن خلفية معينة[43]، وزادت براعته في استخدامه عندما جعل موضوع الحلم دينياً يتعلق برؤية الرسول صلى الله عليه وسلم، وتفنن في الإغراب في رسم الصورة التي رأى عليها الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا أمر يدفع للإثارة والمتابعة أكثر وأكثر، فقد رآه كالشمس تحت الغيم، وكالبدر في ليلة الظلمة، النجوم تسير وراءه عندما يمشي، والملائكة تتبعه ترفع ثوبه الطاهر، فعلى هذه الصورة رآه. وعلى هذه الهيئة حاكاه، وعلمه الرسول دعاء أوصاه أن يعلمه للمسلمين- وهذه لفتة مهمة- تشير إلى مكانة الواعظ- صاحب الحلم -عند الرسول صلى الله عليه وسلم حيث جعله مؤتمنا على وصيته للمسلمين، وهذا سيسوغ قبول المصلين مثل هذه التفصيلات، والنظر إلى الواعظ باحترام وإجلال وقداسة، وبالتالي الانقياد والطاعة لكل ما يطلبه بعد قليل، ولأن الحلم لا قيود عليه لأنه خارج نطاق الموضوعية والمراقبة والمعقولية، ومثله النوم والتخيلات والهلوسات[44]، فقد حلق خيال الواعظ تحليقا عاليا، وتفنن في رسم صور مشاهداته للرسول.

لقد نجح الواعظ نجاحات عدة؛ فقد نجح عندما ضبط الناس ومنع خروجهم من المسجد، ونجح عندما سيطر على مشاعرهم بمنامه الغريب، ونجح عندما أعلن أن الرسول صلى الله عليه وسلم خصه بوصيته، ونجح عندما فتح جيوب الناس لتنثال عليه الدراهم بكثرة محيرة.

ولعل ابن هشام هنا نسي الوقت وصعوبة الانتظار، فقد أذهلته الطريقة في تحصيل الرزق، فخرج وراء هذا الواعظ - أبي الفتح الإسكندري -وقد جمع من المال ما جمع لا ليعاتبه على هدره

وقت الناس الآن، بل ليسأله، كيف اهتدى الى هذه الحيلة البارعة، وهو سؤال معجب لا عاتب مستغرب،..... وكأنه ارتاح لفعله الذي جعل من العبادة تجارة مربحة، في حين فشل هو في جعل العبادة عبادة، والتجارة تجارة، أو على الأقل في التوفيق بينهما؟؟. ويبقى الزمن مسئولا عن التغير والتبدل في شخصية الفرد، وسلوكه، وعواطفه، فالانقلاب الذي أصاب شخصية عيسى بن هشام أخيرا من أقصى السالب إلى أقصى الموجب تجاه الزمن، كان في الواقع هو الزمن نفسه؟.

الخاتمة:

تتولى المقامات الهمذانية معالجة قضايا متعددة، وتعرض لمسائل شتى، وتتنقل من بلاد إلى بلاد، وتحضر في مجالس العلم والأدب، وتدخل الدور والبيوت، وتلج البيمارستانات، والخمارات، والمساجد، وتناقش، وتصف، وتوجه، وتعلن، وتخفي، وتوحي، وترمز، وتؤشر، متسلحة بلغة مشحونة بطاقة مميزة، لا يدركها إلا من هو قريب منها.

وقف هذا البحث، مع المقامة الأصفهانية،التي عرضت لموضوع مهم يتعلق بالعلاقة القائمة بين الزمن الديني (الصلاة)، والزمن الدنيوي (التجارة)، وهي علاقة ليس من السهل التوفيق بينهما.

حاول بديع الزمان أن يوفق بين الزمنين في هذه المقامة، لكنه لم يستطع، فقد فشل عيسى بن هشام الذي أدى دور البطولة فيها – وهو الراوي في العادة – فشل في التوفيق بين تأديته صلاة الفجر جماعة مقتديا بإمام مسجد أصفهان، ومرافقته القافلة التجارية المتجهة إلى بلاد الري.

لم يكن السبب في فشل عيسى بن هشام عائدا إلى استحالة الجمع بينهما كعملين متضادين، بل كان السبب الرئيس، هو تصرفات الإمام البطيئة، التي لا تراعي أحوال من خلفه من المصلين، بالإضافة إلى الوعاظ الذين يصادرون وقت الناس دون مراعاة إلا لمصالحهم المادية الضيقة جدا وفد أدى دور الواعظ هنا أبو الفتح الإسكندري -وهو البطل التقليدي للمقامات-. تنبع أهمية هذه المقامة، من كونها تدعو إلى احترام الوقت، وحسن استثماره، وإمكانية التوفيق بين زمني الدين والدنيا.

Time in Asfahani Maqama

Mohammad Ali Ibnian and Suhail m. Khasawneh, *Department of Human Sciences / Division of Arabic, Jordan University of Science and Technology, Irbid, Jordan.*

Ali Ben Tameem, *Faculty of Humanities and Social Sciences, UAE University, Al Ain, United Arab Emirates*

Abstract

Badi az- zaman al-hamadani tried in this maqama to harmonize between the present life and religious duty but he couldn't because of those who are administering mosque affairs such as iman and preacher. the maquma falls into two parts in its genral strcture. the first part deals with lengthly prayers and narrator issa ibin hisham played the leading role in it. He was depicted as a frustrated person who suffers from a sever conflect due to the incapability to conform between the time of worship and time of business.

In the second part ,almanamah, the leadin role was performed by the renowned hero of almaqamah abu alfatih aliskandari who sheds the blood of time on the altar of lies,deception and fraud through adream in which he saw prophet mohammed (peace be upon him). so, he almost made people forget thire suffering arts of making his living.

قدم البحث للنشر في 2008/8/10 وقبل في 2009/5/4

الهوامش:

* الزمن والوقت: اسم لقليل الوقت وكثيرة، والزمن والزمان هو العصر، والوقت مقدار معروف من الدهر وغالب استعماله في الماضي. ينظر: لسان العرب، باب النون، فصل الزين.

1- ينظر: قاسم المومني، في قراءة النص، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان، دار الفارس للنشر والتوزيع، 1999م، ص36.

2- ينظر: هانس روبيرت ياوس، الإنتاج والتلقي "أسطورة الأخوين العدوين"، ترجمة: رشيد بنحدو، مجلة نوافذ، الإصدار الخامس عشر، 2001م، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ص51.

3- ينظر: وولفكانك أيزر، سيرورة القراءة "مقاربات ظاهراتية"، ترجمة: فاطمة الذهبي، مجلة نوافذ، الإصدار الخامس عشر، 2001م، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ص143.

4- الزمن في الأدب، هانز ميرهوف، ترجمة: أسعد رزق، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1972، ص: 77- 78. وينظر: مجلة الباحث، عدد7، تموز، 1977، ص 103 – 104.

5- مجلة الباحث، عدد7، ص103-104.

6- حسني محمود، المكان في رواية زينب... الواقع والدلالات، علامات في النقد، الجزء الثامن والعشرون، المجلد السابع، 1998، جدة، النادي الأدبي الثقافي، ص204.

7- في نظرية الرواية، عبد الملك مرتاض، عالم المعرفة، عدد240، الكويت، ص208.

8- مجلة الباحث، عدد7 ص90، وينظر: مجلة الفكر العرب المعاصر، عدد 22،1982،21/20، ص: 69.

9- الزمن في الأدب، هانز ميرهوف، ص100.

10- المرجع نفسه، ص100.

11- السيد إبراهيم، قضايا النقد الأدبي في كتابات عبدالله الغذامي، علامات في النقد، الجزء الثامن والعشرون، المجلد السابع، 1998، جدة، النادي الأدبي الثقافي، ص75.

12- مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد 1982/22/21/20، ص73.

13- مجلة الباحث، عدد1985،37، ص115.

14- الزمن في الأدب، هانز ميرهوف، ص 75.

15- مقامات بديع الزمان الهمذاني، شرح: محمد عبده، دار المشرق، بيروت، ط8, انظر المقامة الاصفهانيه ص53.

16- مجلة الفكر العربي المعاصر، ص 73.

17- في نظرية الرواية، عبد الملك مرتاض، ص 203-206.

18- المرجع نفسه، ص 203-206.

19- إدوارد سعيد، العالم والنص والناقد، ترجمة: عبد الكريم محفوظ، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2000م، ص30.

20- ينظر: الصراع الاجتماعي في الدولة العباسية " محمد نجيب أبو طالب "، دار المعارف، ص:90. وينظر: أحداث التاريخ الإسلامي، عبد السلام الترمانيني، تونس للطباعة، دمشق، 1991، المجلد الأول، ج2، ص: 19-23. فهي كلها تؤكد جو المقامة العام.

21- ينظر: المقامة ص51.

22- ينظر المقامة ص 51-52.

23- مقامات بديع الزمان الهمذاني، شرح: محمد عبده، دار المشرق، بيروت، ط8، ص:51.

24- نبيلة إبراهيم، البنائية: من أين وإلى أين؟ مجلة فصول، مج1، ع2، 1981، ص 169.

25- المصدر نفسه، ص 51.

26- المصدر نفسه، ص 52. ينظر: هامش المقامة.

27- بناء الرواية، سيزا قاسم، الهيئة المصرية العامة للكتاب،1984، ص 76.

28- ينظر: المقامة ص52.

29- سورة المعارج، آية:4.

30- تفسير الكشاف، الزمخشري، تحقيق: محمد موسى عامر، ج5، ص155.

31- مجلة الفكر العربي المعاصر، ص69.

32- ينظر: المقامة ص52.

33- مقات بديع الزمان الهمذاني، ص53.

34- الزمن في الأدب، هانر ميرهوف، ص 20.

35- ينظر: محمد أحمد المسعودي، الزمن والكينونة "الفانتاز المشهدية الغرائبية في زمن عبد الحليم"، مجلة كتابات معاصرة، المجلد الثامن، العدد (29)، بيروت، 1997/1996م، ص110.

36- ينظر: المقامة ص53.

37- ينظر: المقامة ص53.

38- ينظر: المقامة ص52، 53.

39- مجلة الكلمة، العدد7، السنة الثانية، بيروت،1995، ص 89-90، نقلاً عن كتاب الزمان في الفكر الإسلامي، إبراهيم العاني، دار المنتخب العربي، بيروت، 1993، ص26.

40- مقامات بديع الزمان الهمذاني، ص53.

41- See: Iser, Wolfgang, The Act of reading, Atheory of Aesthetic Respanse, P: 20)).

42- ينظر: المقامة، ص 53- 54.

43- قلق التأثر، نظرية في الشعر، هارولد بلوم، ترجمة: عابد إسماعيل، دار الكنوز، بيروت، 1998، ص87.

44- الزمن في الأدب، هانز ميرهوف، ص 31، 32.